العمل الصالح في عشر ذي الحجة

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٧/١٢/١٤م

قال الحبيب صلى الله عليه وسلم: **(ما مِنْ أيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أحَبُّ إلى اللّه تعالى مِنْ هَذِهِ الأيَّامِ العَشْرِ)**، أي كلُّ عملٍ صالح إذا وقع في هذه الأيام فهو أحبُّ إلى الله تعالى من نفس العمل حينما يقع في غير هذه الأيام.

والعمل الصالح مفهومٌ يتكرر في القرآن الكريم كثيرًا، وتنصرف عقول الناس حينما يدخل العشر الأول إلى صلاةٍ وصيامٍ وحسب، فيُختزل معنى العمل الصالح في الصلاة والصيام، لكنَّ العمل الصالح كلمةٌ تدلُّ دلالة واسعة على كل ما يُتقرَّب به إلى الله تبارك وتعالى، وعلى كلِّ ما هو معتبَرٌ عند الله تبارك وتعالى، وعلى كل ما به يكون الإنسان متميزًا في نوعه.

واختَزَل القرآن الكريم مفهوم العمل الصالح حين قال سبحانه وتعالى: { إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ } [البينة: ٧]، فالإنسانية والبشرية كلُّها صفوتُها مَنْ جمع أمرين:

- جمع في قلبه إيمانًا بالله تبارك وتعالى، فقلبُه صدّق بكلام الله، وصدّق بوعده، وصدّق بما أخبر به.

- وبعد ذلك تلبّس بالأعمال الصالحات فارتقى - كما يقول القرآن - إلى سدّة الصفوة: { إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ } .

واعتبِر مكانة العمل الصالح عند الله تبارك وتعالى حين تقرأ في القرآن الكريم:

{ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } [فاطر: ١٠]

فإذا كان رفيعُ الدرجات سبحانه، والعليُّ العظيم، والجليلُ سبحانه وتعالى، يصف هذا العمل الذي يسميه صالحًا فيقول: { يَرْفَعُهُ } ، وإذا رفعه رفيعُ الدرجات سبحانه، فكيف سيكون هذا العمل؟!

إذًا: العمل الصالح مفهومٌ دلالته واسعة لا تنحصر في الصلاة والصيام، إنما هما أجزاء من دلالات العمل الصالح، فأين نحن من العمل الصالح ونحن مدعوُّون في كل عام إلى الارتقاء في هذه الأيام العشرة؟

لا يختزل العمل الصالح في الأيام العشرة من هم اليوم عند مقام إبراهيم، أو عند البيت العتيق، لا.. إنما هم شرفوا بلقاء البيت العتيق، وشرفوا بعملٍ صالحٍ جليلٍ عظيم، لكن العمل الصالح لا ينحصر هناك، إنما يكون حيث كان الإنسان، وطالما أن الإنسان موجود على كوكبنا الأرضي هذا فإن العمل الصالح يكون حيث يكون هذا الإنسان.

وبعد ذلك نقرأ روايةً في صحيح البخاري يقول فيها النبي صلى الله عليه وسلم: **(ما العَمَلُ في أيَّامٍ أفْضَلَ مِنْها في هَذِهِ، قالوا: وَلا الجهادُ فِي سَبيل اللّه؟ قال: وَلا الجِهادُ، إلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ يُخاطِرُ بنَفْسِهِ وَمالِه فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ)**، أي خرج باستعداده هذا يريد الشهادة في سبيل الله.

وإنني إذ أقرأ هذا الحديث أقف وقفة إجلالٍ وإكبارٍ أمام مَن يمسكون لواء الجهاد في وقتنا هذا أمام العدو الصهيونيّ، هؤلاء الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **(هُمْ بِأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ)**، فنرفع إليهم التحية، ونقف أمامهم وقفة أدب واحترام.

فيا أهل غزة، ويا أهل رامَ الله، ويا أهل الأرض المقدسة المباركة، وأنتم كلَّ يوم تخرجون بأموالكم وأنفسكم فلا ترجعون منها بشيء، حيَّاكم الله، فيكم نجد قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [التوبة: ١١١-١١٢].

اقرؤوها قراءة شمولية، وأنتم تنظرون إلى من وقف يقاتل العدو وهو تائب، وهو عابد، وهو سائح، وهو راكع، وهو ساجد، وهو آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر، وهو حافظٌ لحدود الله...

أنتم يا من يقف عند بيت المقدس، وفي أكناف بيت المقدس، يمسك راية الجهاد فيُبقي هذا التشريع:

(لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ... هُمْ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ).

هي شهادةٌ من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لكم يا أهل الجهاد، فالجهاد لا يكون بتفجير في الأسواق. لا.. إنما يكون في مثل هذا الموقف حين يكون عدوُّك واضحًا، وهو الجهاد بمعنى القتال.

أما الجهاد بغير معنى القتال فإنه مفتوحٌ أمام الجميع، وذلك حينما تبذل جهدَك في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وحينما تبذل نفسك ومالك من أجل إعلاء كلمة الله.

وأما الجهاد بمعنى القتال، فإننا نراكم يا أهل فلسطين، ويا أهل غزة، نراكم اليوم تمسكون راية الجهاد لا تأبهون للقوى الكبرى، ولا تأبهون بالمادية، ولا تأبهون بالعلمانية، ولا تأبهون بمن يتآمر عليكم، ولا تأبهون بمن يبيعكم ويشتريكم على طاولات الاتفاقيات...

أنتم تقفون هناك وتجمعون بين موقفٍ ثابت على أرض الجهاد، وتوبةٍ إلى الله، وننظر في وجوهكم، فنرى التوبة وترك المعصية، والتبني لمنهج الاستقامة.

اقرؤوها متصلة ولا تقطعوا بين هذه الآية وتلك:

{ التَّائِبُونَ } المجاهد التائب، { الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ } الذي لا يلتوي لكنه يلتزم منهج المعروف ويأمر به، { وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ } كيفما كانت حدود الله، فهي انضباطيةٌ أمام شريعة الله تبارك وتعالى التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } الذين يجمعون بين الجهاد وهذه الأوصاف، التي توجهوا فيها إلى الله، وقاموا على طريق الاستقامة بالتطبيق.

وبعد أن نحيي من يجمع كل هذا على أرض الواقع نقول: إننا بحاجة إلى مراجعة في مفهوم العمل الصالح، فالعمل الصالح في قرآننا، ونحن نقرأ القرآن من أوله إلى آخره، لكننا بعد ذلك نختزل - كما قلت - مفهوم العمل الصالح إلى رُكيعاتٍ نصليها أو صيامٍ نصومه، لا.. إنما العمل الصالح منهجٌ سلوكيٌّ عمليٌّ متكامل.

وأختار لكم اختيارًا من كتاب الله سبحانه، لا لأشرحه إنما لآتي لكم ببعض النماذج، وما أردت من خلالها حصر مفهوم العمل الصالح، لكنني أردت أن أُذكِّر ببعض وجوه العمل الصالح، طالما أن العمل الصالح في هذه الأيام هو من أفضل ما يُتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى في كل العام.

العمل الصالح، وما أحوجنا إلى العمل الصالح؟!

١ - التوبة: التي هي مبتدى كلِّ عملٍ صالح، ومن غير توبة لا قيمة للعمل، ولا يكون العمل صالحًا، والتي من خلالها يتبرّأ قلبك من الشرك، ويُعلِن بدنك أنه قد ترك منهج الانحراف.

قال تعالى: { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور: ٣١].

٢ - أداء الأمانة: وأيُّ قيمة لمن يدَّعي أنه صاحب عمل صالح، والعمل الصالح يرفعه الله، إذا لم يكن من أصحاب أداء الأمانة؟ { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا } [النساء: ٥٨]

٣ - إصلاح ذات البين: وقد جعل صلى الله عليه وسلم فسادَ ذاتِ البين الحالقة التي تحلق الدين، ومجتمعُنا يعيش حالة فساد ذات البين، أي التنافر، فلا يوجد بيننا لقاءٌ نتواصل فيه في بواطننا بالمحبة، وفي ظواهرنا بالتعاون، بل يبقى كلُّ واحد منا في الـــ: "أنا"، والفردية.

يقول تعالى: { وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ } [الأنفال: ١]

أريد أن أقرأ عليكم بعضًا من هذه النصوص حتى نتنبّه ونعلم أن مفهوم العمل الصالح لا ينحصر في الصلاة والصيام.

٤ - العناية بأبيك وأمّك: فمهما كنتَ في توهُّمك صاحبَ عمل صالح، إذا لم تكن من أصحاب البرِّ بالوالدين فلا قيمة لأعمالك، والله سبحانه يقول: { وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا } [الأحقاف: ١٥] أي أحسن إليهما.

وكم يراجعني شبابٌ ويقولون لي: إن أبي لا يصلّي، إن أبي يحارب الدين، إن أبي بعيد عن منهج الدين...

وأقول: لا شأن لك بهذا، فالله سبحانه وتعالى قال: { وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } [لقمان: ١٥].

فهو أبوك، وهي أمك، وأنت مأمور أن تكون صاحبًا مُحسنًا لهما مهما كان اتجاههما العَقديُّ أو السلوكيّ، فهذا ليس من شأنك.

لو دعوتَ إلى الله ودعوتَ الله لهما، ربما يستفيدان أو لا يستفيدان، وهذا ليس من شأنك، إنما الذي لا ينفكُّ عنك في كل حال برُّك لهما، فلا أقبل أن تكون صاحب عمل صالح وأنت عاقٌّ لأبويك، وأنت لا تضع رأسك عند أقدام أبويك، ولا قيمة لعملك.

رُؤي الشافعي رحمة الله عليه في المنام وقد ضُمَّت لحيته باللؤلؤ، رآه رجل فذهب إليه وقال: أيها الإمام، لقد رأيت اليوم عجبًا، رأيت لحيتك وقد ضُمَّت بحبات اللؤلؤ، أبشِّرك، فما شأن هذه الرؤيا؟ قال: إنني لا أنام كل ليلة حتى أضع لحيتي هذه تحت قدم أمي.

إنه الإمام الشافعي، فمن أنت؟

إنه الشافعي الذي تتبعه أمصارٌ في ربع الأرض أو أكثر، يضع لحيته تحت قدم أمه، فمن أنت؟

هكذا أراد الله أن تكون مع أمك وأبيك، أتفرح أنك تُصلِّي وتصوم، وأنت عاقٌّ لأبويك؟

هيهات هيهات أن تجد شيئًا من العمل الصالح.

٥ - عنايتك بأولادك:

فكما قال سبحانه: { وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ } قال: { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ } [النساء: ١١]

(كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)، فأين أنت من هذه الوصية؟!

٦ - الاعتصام بالقواسم المشتركة الكبرى: التي هي حبل الله، فحبل الله القرآن، وحبل الله قواسم الأمة الكبرى، وهكذا قال الله سبحانه وهو يوجِّهنا إلى أكمل الأعمال الصالحات:

{ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا } [آل عمران: ١٠٣].

لِيعذُرْ بعضُنا بعضًا في المُحتمِلات، ولنجتمعْ على الثوابت.

٧- **الصُحبة الصالحة:** قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [التوبة: ١١٩].

٨- **الصبر على دينك:** قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا } [آل عمران: ٢٠٠].

ولم يكتفِ بالصبر، إنما قال: { وَصَابِرُوا } وهذه دلالة لغوية تعني معاناةً ومحاولةً وصراعًا.

- فـــ: "اصبر" درجة.

- أما "صابِر" فهي درجة أعلى: أي عارِك نفسَك، ونفسُك تقول: لن أصبر بعد الآن، لكن الله تعالى يقول لك: صابِر.

- وبعد هذا يقول: رابِط، والمرابط هو الذي يحرس، حتى تكون في كل لحظة حارسًا: تحرس قلبك، وتحرس عقلك، وتحرس بدنك، وتحرس جوفك، وتحرس لسانك، وتحرس أخلاقك...

٩- **الذكر:** يقول سبحانه: { وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ } [الكهف: ٢٤] فإذا غفلت وقسا قلبك، اذكر، فالدواء موجود وتشكو القسوة؟

١٠- **قرآن الليل وقرآن الفجر:** يقول تعالى: { وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا، وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا } [الإسراء: ٧٨-٨٠].

١١- **الدعوة إلى الله:** يقول سبحانه: { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [آل عمران: ١٠٤].

١٢- **الاستسلام إلى الله:** { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً } أي لا تكونوا ممن يحاربون الله.

وكم يلوون هذه الآية، وكم يحرّفون دلالتها! فيقولون: معناها: لا تحاربوا أحدًا.

قبَّح الله سوء الفهم.

{ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ } أي لا تكونوا من المحاربين لله، بل استسلموا لله، وكونوا عباد الله.

{ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ } حتى لا يكون الله محاربًا لكم وتكونوا محاربين لله، **(مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)**.

فإذا قال الله، وإذا دلَّ رسوله على شيء، فاستسلموا.

{ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } [البقرة: ٢٠٨] لأن الشيطان يريد أن يلتفَّ عليكم، حتى تدخلوا في مُنـــزلقاته ولا تستلموا لله.

١٣ - الاعتصام بالله: فإذا توهّمت - وأنت تلتزم منهج العمل الصالح - أن أحدًا سيضرُّك أو سيؤذيك، فحصِّن كلَّ ذلك بالاعتصام بالله.

فالمنهج السلوكيّ: { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ } [آل عمران: ١٠٣].

وحصنه: { وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ } .

{ هُوَ مَوْلَاكُمْ } أي هو يتكفل أمركم، وهو ينصركم، وهو يحفظكم...

{ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [الحج: ٧٨].

اللهم وفقنا للعمل الصالح، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.